العلاقة الطغرائية
بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية
دراسة تاريخية - فنية

د. محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني



العدد الخامس والثلاثون
2015

العَلامَة الطغرائية
بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية.
دراسة تاريخية – فنية

د. محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني
خطاط وباحث – فاس

يعد ابن الأحمر (725 – 807هـ/ 1325 – 1405م) أقدم من أَلَّف كتابا في الطغراوات والعلاَمات السلطانية، ليس في المغرب فحسب، بل حتى في العالم الإسلامي برمته، وقد سمّى كتابه الذي خصصه لذلك: «**مستودع العلاَّمة ومستبدع العلاَمة**»، وهو الكتاب الذي ألفه للمرينيين، وتحديدا لأبي علي الحسين بن أبي دلامة كاتب أبي الحسن المريني (731–749هـ/ 1331–1348م) كما يذكر ذلك في مقدمة كتابه[1]، ولعله فعل ذلك جريا على عادة بعض من عاصره من الأعلام، الذين دخلوا في طاعة المرينيين، كابن خلدون وابن الخطيب وابن مرزوق وابن الحاج النميري وغيرهم، وترجم ابن الأحمر في كتابه هذا لعدد كبير من الخطاطين والكُتّاب والعلماء الذين عُيِّنوا لتحرير الرسائل والمناشير، والتوقيع عليها في الدواوين السلطانية في المغرب، ولم يقتصر على ذلك، بل تعداه لذكر حتى بعض المشارقة الذين عُيِّنوا لنفس المهمة في الدواوين المشرقية.

(1) ابن الأحمر (أبو الوليد)، **مستودع العلامة ومستبدع العلامة**، تحقيق: محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، المطبعة المهدية، تطوان، 1964م، ص: 19.

وقد تفرد ابن الأحمر - دون غيره - بذكر معلومات لم ترد في أي مصدر من المصادر الأخرى ولو عرَضا، حيث قدّم لنا إفادات مهمة عن طبيعة تلك **الطغراوات والعلامات السلطانية** التي اتخذها السلاطين في مجموع بلدان شمال إفريقيا من المغرب حتى مصر، كما ذكر لنا بعضا من تلك العلامات ونصوصها، وأوجه الائتلاف والاختلاف بينها من دولة إلى دولة، ومن مرحلة زمنية إلى أخرى. بل وميّز بين العلامات التي كانت تُكتب بأسماء السلاطين وألقابهم، والعلامات التي كانت تُكتب بنصوص وعبارات غيرها، تتنوع معانيها بين «التوكل» و«الحمد» و«الاستعانة» و«التصحيح». يقول ابن الأحمر في ذلك : «وقد اشتق بعضهم [يقصد السلاطين] لفظ العلامة مجانسا للقبه ... ومنهم من يكتب علامته بخلاف اشتقاق لقبه، كالسلطان يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المغرب، كانت علامته: «**صح ذلك بحول الله**». وكملوك الموحدين من بني عبد المومن.. كانت علامتهم في أول صكوكهم بعد البسملة : «**والحمد لله وحده**» وكملوك الموحدين من بني أبي حفص بإفريقية، كانت علامتهم في أول كتبهم: «**الحمد لله والشكر لله**» .. [و] بني الأحمر ملوك الأندلس، كانت علامتهم في أوليتهم: «**ولا غالب إلا الله**». ثم كانت علامتهم : «**وكتب في التاريخ**» ... ثم انتقلوا من ذلك فكتبوا علامتهم : «**صح هذا**»»[2].

وعلى غرار ابن الأحمر، وجدنا ابن خلدون - هو الآخر- يتحدث لنا عن العلامات السلطانية في الغرب الإسلامي (أو المغارب كما يسميه البعض)، وذلك انطلاقا من توليه لمنصب الكتابة عند كل من الحفصيين في تونس، والمرينيين في المغرب، فاعترف أن ما كان يُطلَق عليه «علامة» في المغرب هو عين «الطغراء» في المشرق، ويؤخذ ذلك من قوله : «..الطغري.. هي العلامة..»[3]. وفي سياق

---

(2) ابن الأحمر، مستودع العلامة، صص: 21 - 24

(3) ابن خلدون (عبد الرحمن)، «**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**»، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1988م، ج/ 3، ص: 616.

آخر يتصل بنفس المعنى، أكّد ابن خلدون أن «العلامة السلطانية» هي «التوقيع»، ويُستنبط ذلك من قوله : «..فيرسم [السلطان] الأمر للكاتب ليضع علامته، ومن خِطط الكتابة التّوقيع»[4].

وعلى العموم، فقد اختلفت الروايات المصدرية في أصل كلمة «طغراء» بين نسبتها إلى الفرس أو الروم أوالتُّرك، حيث وردت بتسميات مختلفة في المصادر التاريخية والمعاجم اللغوية، وهي من جذر واحد يتمثل في الحروف : «ط - غـ - ـر»، التي تفرعت عنها عدة مسميات من قبيل : «طغرة»، «طغراة»، «طغري»، «طغرى»، «طغرا»، «طغراء». وذلك بالرغم من كون تلك المصادر قد نقل بعضها عن بعض. حيث يُحتمل أن يكون المؤلفون هم من تصرفوا في الكلمة بعد النقل، كما يُحتمل أيضا أن يكون المحققون هم من تصرفوا فيها بداعي التحقيق من خلال الاعتماد على المقابلة (أي : مقابلة النُّسخ بعضها ببعض وإثبات التسمية الأصح منطوقا ومفهوما)[5].

1 – بعض الروايات المصدرية حول الجذور التاريخية واللغوية للطغراء في كل من المشرق والمغرب :

إن معظم المصادر المشرقية وبعض المصادر المغربية التي تعرضت لذكر الطغراء، إنما تعرضت لذكرها في سياق التعريف بالوزير - الشاعر «الحسين بن علي الطغرائي» (455–513هـ/ 1063–1120م)[6] الذي استوزره السلاجقة، وكلفوه برسم علامتهم في ديوان الإنشاء[7]. وهو صاحب «لامية العجم» التي عارض

---

(4) ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية : 1988م، ص: 306.

(5) راجع تفصيل ذلك في كتابنا :
خبطة (محمد عبد الحفيظ الحسني)، «**الطغراء والأختام السلطانية وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية. دراسة تاريخية - فنية، وتشريح علمي - تعليمي**»، فــاس، الطبعة الأولى : 2013م، ص: 13.

(6) ابن الأحمر، **مستودع العلامة**، ص: 26.

(7) حميد (مها سعيد)، «**وزير الموصل مؤيد الدين الطغرائي- دراسة في سيرته ونشاطه العلمي**» - مركز دراسات الموصل، **مجلة التربية والعلم، المجلد** : 19، العدد: 5، سنة: 2012م، صص: 175-192

بها «لامية العرب»، للشاعر «الشَّنْفَرى» (ت 70 ق. هـ/ 525م) أحد أبرز شعراء الصعلكة في العصر الجاهلي[8]. ويعد الحسين بن علي هذا أشهر من عُرف بلقب «طغرائي»، وهو اللقب الذي يحيلنا مباشرة على وظيفته في الدواوين السلطانية السلجوقية. وأول مصدر أورد ذكره، وعرّف بخبره، هو كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» المسمى «نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية"، للعماد الأصبهاني (519 – 597هـ/ 1125 – 1201م)[9]. وعنه أخذت ذلك سائر المصادر من كتب التاريخ والتراجم والمعاجم التي استخرج:ا منها الشواهد والقرائن التي تؤصل لمفهوم الطغراء، ودلالاتها التاريخية والفنية والوظيفية[10].

ونشير في هذا المضمار إلى أن المعاجم العربية اختلفت حول كلمة «طغراء»، وحقيقة أصلها في اللغة العربية من عدمه، فقد ورد في المعجم الوسيط أن «الطُّغْراء» هي «الطُّرَّة»، وجمعها: طُرَرٌ، وطِرارٌ. ومعناها اللغوي: طرفُ كلِّ شيء وحَرْفُهُ، ومنها حاشية الكتاب[11]. وَفي لسان العرب «طُرَّةُ الشَّعَرِ والثوبِ أي: طَرَفُه»[12]، ورغم أن الزّبيدي (1145–1205هـ/ 1732–1790م) أكّد على أنها ليست من فعل: «طَغَرَ» الذي هو مرادف لفعل «منع» أو «دفع»[13]. إلا أن المقريزي (764 -845هـ/ 1364–1442م) استخدم نفس الفعل للإشارة إليها في عصر المماليك من

---

(8) عن ترجمة الشنفرى؛ راجع ذلك بتفصيل عند:
- الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين المرواني الأموي)، **الأغاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: 1994م، ج/ 21، صص: 118 - 128

(9) الأصبهاني (عماد الدين أبو عبد الله محمد)، تاريخ دولة آل سلجوق المسمى: «**نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية**»، قرأه وقدم له: يحيى مراد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: 2004م، صفحات: 255 - 259 - 270 - 297.

(10) محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، «**الطغراء والأختام السلطانية..**»، ص: 13.

(11) **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية**، (إبراهيم مصطفى- أحمد الزيات - حامد عبد القادر- محمد النجار)، دار الدعوة، د.ت، ج2/، ص: 554.

(12) ابن منظور (أبو الفضل أحمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1993م، ج/ 4، ص: 501.

(13) مرتضى الزّبيدي (أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، ج/ 12، ص: 430. - انظر أيضا: ابن منظور، لسان العرب، ج/ 4، ص: 501.

خلال قوله: «... وفي التواقيع رسم بالأمر، وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله. أوّل الخطبة، أن تُطغر بالسواد وتتضمن اسم السلطان وألقابه»[14]. لكنه اعترف - مع ذلك - بأنها كلمة فارسية الأصل، ويؤخذ ذلك من قوله : «والطغرا هي طرة المكتوب... وهي لفظة فارسية»[15].

وقد استدل ابن فضل الله العمري (700-749هـ/ 1301-1349م) - قبل المقريزي - بنفس النص عند حديثه عن محمد الناصر بن المنصور قلاوون (عاش بين 684-741هـ/ 1285-1341م)، لكنه لم يُفعِّل الطغراء على غرار المقريزي، حيث قال: «وفي التواقيع رسم بالأمر. وتمتاز المناشير المفتتح فيها بخطبة الحمد لله بطغرا بالسواد تتضمن اسم السلطان وألقابه»[16].

علاوة على ذلك، ورد في **المعجم الوسيط** أيضا أن «الطرة تُكتب في أَعلَى الكتب والرسائل فَوق الْبَسْمَلَة [وهي] تَتَضَمَّن نعوت الحَاكِم وألقابه»(17). أما في **تاج العروس**، فالزّبيدي يرى أنها تسمى «طُغْرَى، بالضم مقصورا[وهي] كلمة أعجمية استعملتها العرب، ويعنون بها العلاَمة التي تكتب بالقلم الغليظ في طرّة الأوامر السلطانية، تقوم مقام السلطان، كما نقله [اللفظ للزبيدي] شيخنا عن الصلاح الصفدي، وأطال بسطه في **شرح لامية العجم** لما ترجم [لـ] ناظمها الطغرائي. قلت [اللفظ دائما للزبيدي] : وأصلها (طورغاي)، وهي كلمة تترية استعملها الروم والفرس»[18].

---

(14) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج/ 3، ص: 368.

(15) نفس المصدر، ج/ 3، ص: 394.

(16) العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى: 2002م،ج/ 3، ص: 445.

(17) **المعجم الوسيط**، ج/ 2، ص: 558.
- الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة تحت إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة: 2005م، ص: 431.

(18) الزّبيدي، **تاج العروس**، ج12/، ص: 430 - 431.

وبرجوعنا إلى كتاب «**الوافي بالوفيات**» الذي نقل عنه الزبيدي (1145 - 1205هـ/ 1732 - 1790م)، وجدنا مؤلفه الصفدي (696 - 764هـ/ 1296 - 1363م) يتحدث عن مهمة الطغرائي وعن «الطغراء» التي كان يرسمها. حيث يقول: «الطغرائي بِضَم الطَّاء الْمُهْملَة وَسُكُون الْغَيْن، وَبعد الرَّاء ألف ممدودة وياء النّسَب، هَذه نسْبَة إِلَى من يكْتب الطغراء وَهِي الطرة الَّتِي فِي أَعلَى المناشير والكتب فَوق الْبَسْمَلَة»[19].

ويبدو أن الصفدي قد نقل هذا النص عن ابن خلكان 608-681هـ/ 1211-1282م) الذي سمّاها بـ«الطغري»، حيث قال: «والطغرائي - بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة، وفتح الراء وبعدها ألف مقصورة - هذه النسبة إلى من يكتب الطغري، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ»[20].

ويبدو أن ابن خلكان - هو الآخر - نقلها عن ياقوت الحموي (574-626هـ/ 1178-1229م)، الذي أوردها بتسمية: «طغراء» حيث قال: «... الطغرائي نسبة إلى من يكتب الطغراء، وهي الطرّة التي تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجلي، تتضمن اسم الملك وألقابه، وهي كلمة أعجمية محرفة من الطرّة»[21].

(19) الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة: 2000م، ج/ 12، ص: 268.

(20) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، طبعة: 1900م، ج/ 2، ص: 190.

(21) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي)، **معجم الأدباء**؛ المسمّى: «**إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**»، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1993م، ج/ 3، ص: 1106 - 1107.

2 – التشريح الفني للطغراء السعدية ومقارنتها بالطغراء العثمانية[22]:

الأنموذج الأول: الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي أبي محمد عبد الله الغالب (شكل : 1):

– وصف وتعليق ومقارنة:

كان استعمال الأختام الطغرائية خلال العصر السعدي شائعا بشكل كبير في الدواوين السلطانية، حيث ارتبطت بأوامر السلطان ورسائله ومكاتباته الرسمية، وقد كانت هذه الأختام تزيد عن الطغراء السعدية بإضافة نصوص مرفقة تتضمن اسم السلطان والدعاء له بالنصر والتمكين، وتركيب ذلك في أشكال مختلفة على رأسها الشكل البيضوي الذي كان يتوسطه الرسم الطغرائي كما نلاحظه من خلال الأنموذج الممثل في (الشكل : 1)، وهو عبارة عن خاتم مستخرج من رسالة تأمين وأمان لعبد الله الغالب السعدي إلى أنطوان دوبوربون في أواخر رمضان 966هـ/ يونيو 1559م[23]. وغالبا ما كان السلاطين السعديون يستعملون هذه الأختام في التوقيع على رسائلهم الرسمية الموجهة إلى الممالك المسيحية وغيرها من القوى السياسية المزامنة لها، وذلك بعدما اتخذ كل واحد منهم أشكالا خاصة به، بخلاف الطغراء العثمانية التي كان شكلها ثابتاً لم يتغير، لأنها كانت توقيعا وراثيا يُعبّر عن سيادة دولتهم.

وعلى العموم، فقد اطلعنا على مجموعة منوعة من الأختام الطغرائية الخاصة بثلة من سلاطين الدولة السعدية، وبعد قيامنا بتشريح عناصرها الفنية

---

(22) راجع تشريحنا لهذه النماذج بشكل مختصر في أطروحتنا:
– خبطة (محمد عبد الحفيظ)، المصاحف والكتب المخطوطة في المغرب خلال العصرين المريني والسعدي. مساهمة في دراسة أصناف الخط المغربي وأقلامه، أطروحة جامعية غير منشورة، كلية الآداب – سايس. فاس 2010 – 2011، مبحث : «**الطغراء: جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر السعـدي**»، ج/ 2، صص: 492 – 567. راجع أيضا تشريحنا للنماذج المذكورة بشكل مفصل في كتابنا: «**الطغراء والأختام السلطانية..**»، صص: 321 – 400

(23) انظر نسخة ملونة عن هذه الرسالة في كتابنا: «**الطغراء والأختام السلطانية..**»، ص: 326.

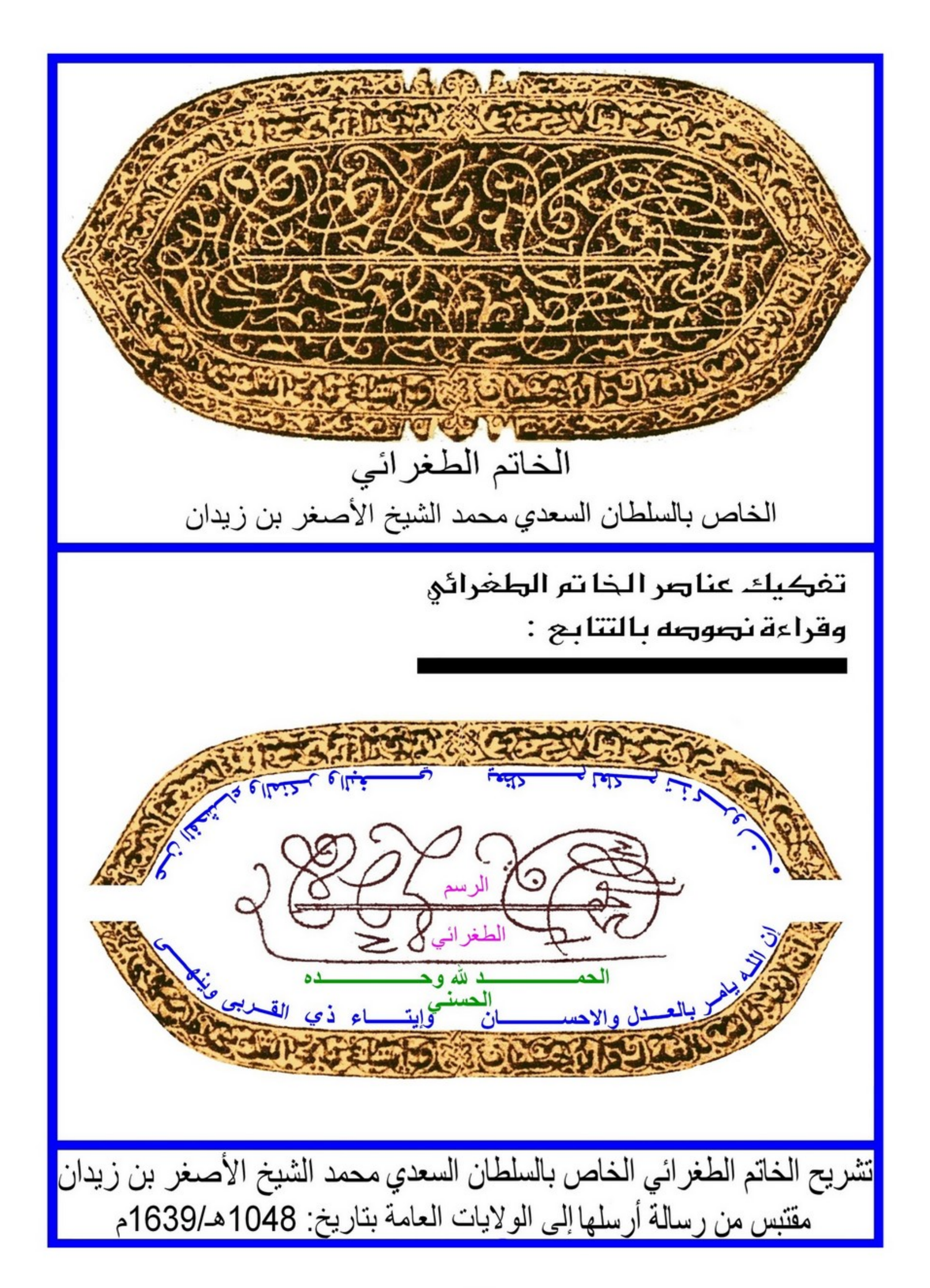
والنّصية[24]، خلصنا إلى أن مظاهر التجويد في هذه الأختام المتأخرة بادية للعيان، فلو أخذنا على - سبيل المثال - الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي محمد الأصغر (انظر شكل : 2 وكذا شكل : 3)، لوجدناه أجود من حيث التركيب الفني، بالمقارنة مع أختام السلاطين السعديين الذين سبقوه، حيث تظهر الطغراء في وسط التوقيع ممشوقة القد، متناسبة الأجزاء، تتخللها زخارف نباتية بديعة، موزعة في الفراغات بشكل متّسق متوازن ومتناسق.

(24) للاطلاع على ذلك؛ انظر: نفس المرجع، ص: 335.



الخاتم الطغرائي
الخاص بالسلطان السعدي أبي محمد عبد الله الغالب بن محمد
تفكيك عناصر الخاتم الطغرائي
وقراءة نصوصه بالتتابع :
الرسم الطغرائي
تفصيل نص الرسم الطغرائي بالألوان
النص المرفق الأول
النص المرفق الثاني
أمير المومنين
الغالب بالله الغني به عمن سواه
أبي محمد بن محمد
أيد الله أمره وأعز نصره
الأمير الشريف الحسني
هاء جامعة ترمز إلى كلمة : "انتهى". أي : انتهى النص.
وهي العنصر الاساسي والبنيوي الذي يشكل جسم الطغراء .
تشريح الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي أبي محمد عبد الله الغالب بن محمد
مقتبس من رسالة أرسلها إلى أنطوان دوبوربون في: أواخر رمضان 966هـ/يونيو 1559م

شكل: 1

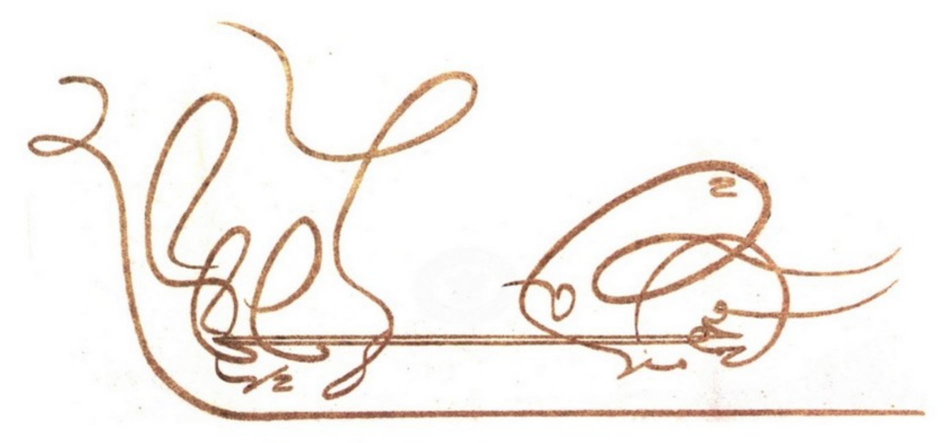

الخاتم الطغرائي
الخاص بالسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان
تفكيك عناصر الخاتم الطغرائي
وقراءة نصوصه بالتتابع :
الرسم
الطغرائي
الحمـــــد لله وحــــده
الحسني
إن الله يأمر بالعـدل والاحســـــان وإيتـــاء ذي القـربى وينهـى
تشريح الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان
مقتبس من رسالة أرسلها إلى الولايات العامة بتاريخ: 1048هـ/1639م

شكل: 2


الخاتم الطغرائي
الخاص بالسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان
تفكيك عناصر الخاتم الطغرائي
وقراءة نصوصه بالتتابع :
الرسم الطغرائي
الحمـــــد لله وحــــده
الحسني
إنما يريـد الله ليـذهـب عنكم الرجس أهل البيت
تشريح الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان
مقتبس من رسالة أرسلها إلى الولايات العامة.بتاريخ: 20 ربيع الأول 1051هـ/29 يونيـو 1641م

شكل: 3

الأنموذج الثاني : طغراء أحمد المنصور الذهبي (شكل: 4 وتفصيله في شكل: 5):



طغراء سعدية مستخرجة من رسالة بعثها أحمد المنصور الذهبي إلى ملكة بريطانيا بتاريخ: 19 شعبان 998هـ/ 23 يونيو1590م.

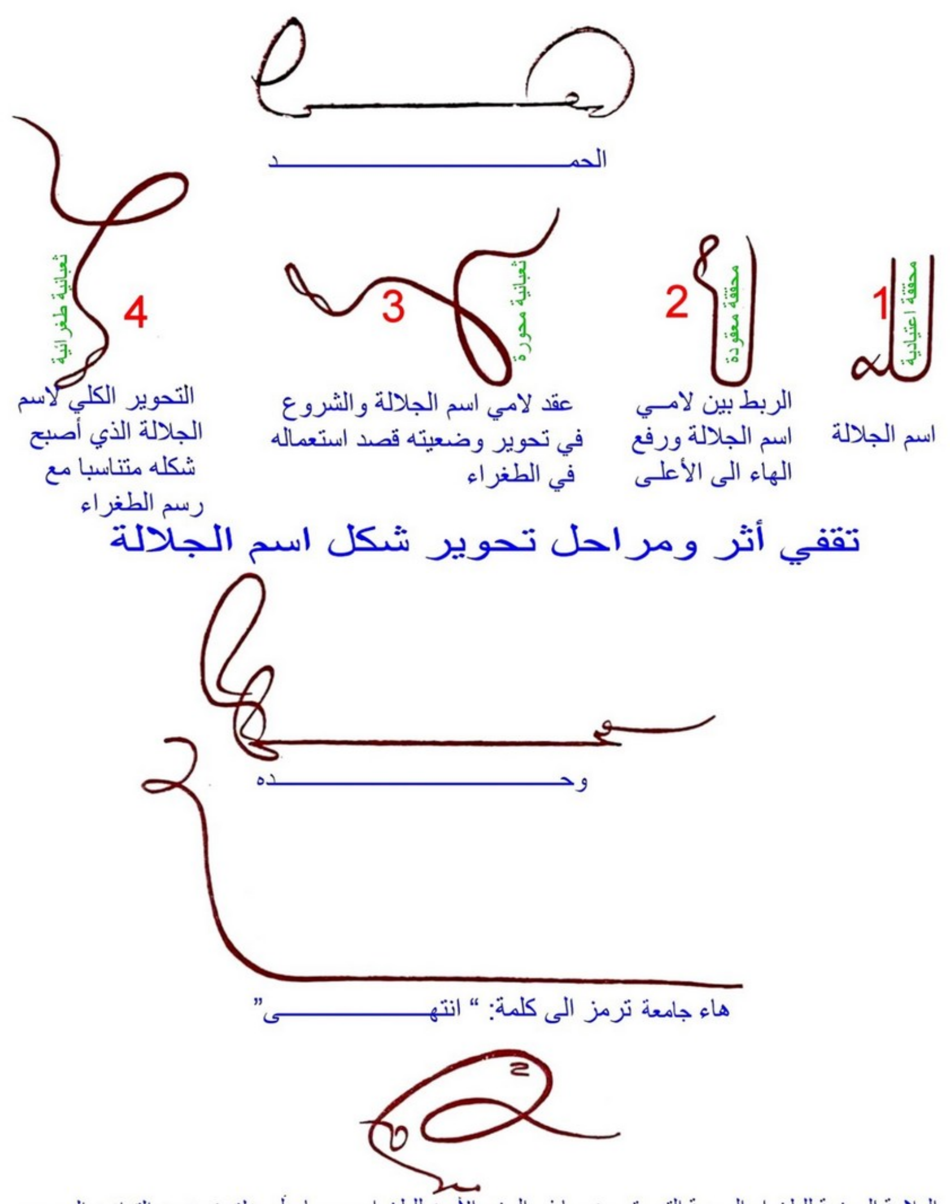
شكل: 4

وردت هذه الطغراء في إحدى رسائل السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى ملكة بريطانيا بتاريخ 19شعبان 998هـ/ 23 يونيو1590م[25]، وحتى نربط هذا الأنموذج الطغرائي ببعض الروايات المصدرية، نشير إلى أن الفشتالي قد خصص في كتابه: «**مناهل الصفا**» فصلا خاصا بتوقيعات هذا السلطان ؛ عَنْونه بالعنوان التالي: «توقيعاته أيده الله»[26]، حيث وصف من خلاله طغراء المنصور بأنها توقيعات سلطانية بديعة. يقول الفشتالي : «كانت تصدر عن مولانا أمير المومنين أيده الله ؛ توقيعات نبيلة تتيه بها الرقاع وتتهاداها الأقطار والبقاع، يرمي بها إلى الأغراض؛ فيصيب فيها الكلا والمفاصل بأوجز لفظ وأرشق عبارة»[27].

(25) انظر فحوى الرسالة عند:
- التازي (عبد الهادي)، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، مطابع فضالة، المحمدية، 1987م، المجلد الثامن، ص: 196.
انظر أيضا نسخة ملونة عن هذه الرسالة في كتابنا: «**الطغراء والأختام السلطانية..**»، ص: 339.

(26) الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق: عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ت، ص: 299.

(27) نفس المصدر والصفحة.



تفكيك العناصر النصية والفنية لطغراء أحمد المنصور الذهبي

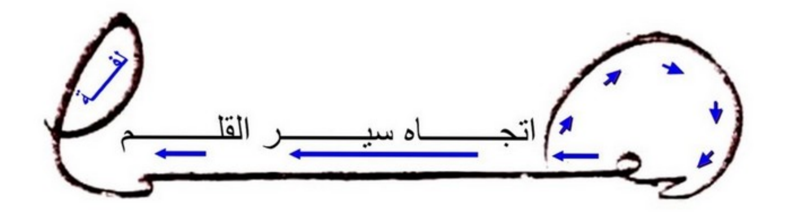
شكل: 5

- وصف وتعليق ومقارنة :

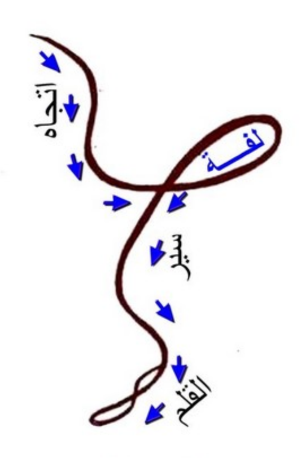
بعد شروعنا في قراءة العناصر الفنية والنصية لطغراء أحمد المنصور الذهبي، أول شيء اصطدمنا به هو صعوبة تفكيك تلك العناصر بسبب تشابكها وتداخلها وفق مسارات متاهية، يصعب من خلالها التفريق بين نقطة البداية ونقطة

النهاية في كتابة الكلمات المؤلفة منها، ويعزى ذلك إلى المنهج المتبع في تركيبها، وهو منهج فريد لا يستند إلى قاعدة معروفة - على الأقل في عصرنا هذا - على خلاف القواعد التركيبية التي قامت عليها الطغراء العثمانية، والتي تستند على قواعد متعارف عليها من طرف الخطاطين، توارثوها بالتواتر كابرا عن كابر، حتى وصلتنا بصورتها الحالية، أما الطغراء السعدية فقد انتهى استعمالها بصفة نهائية - تقريبا - على المستوى الرسمي ؛ بمجرد قيام الدولة العلوية، الشيء الذي جعلنا أمام حلقة مفقودة يجب البحث عنها، ليس فيما يتعلق بالتطور التاريخي للطغراء السعدية فحسب، بل حتى فيما يتعلق بمحاولة قراءتها وتفكيك رموزها الملغوزة التي تخضع إلى قاعدة مجهولة، لم تصلنا بسبب الأسباب المذكورة.

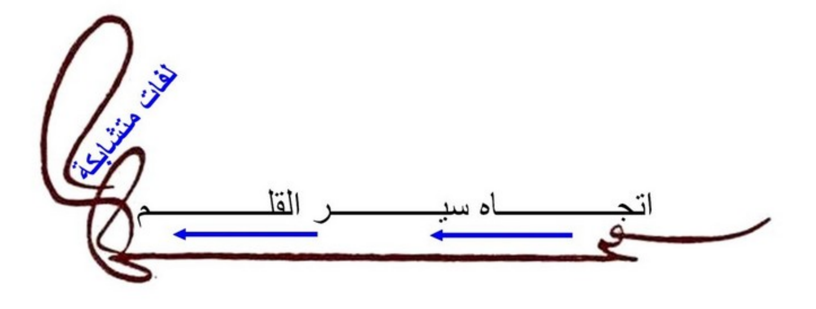
ومن باب الإحاطة، نشير إلى أننا وأثناء القيام بتفكيك العناصر النصية والفنية لطغرائنا المذكورة، تكبدنا عناء ومشقة كبيرين، وذلك بسبب صور الحروف غير الاعتيادية التي تم لفها حول نفسها في إطار تشابكي ثعباني، وكذا بسبب كيفية تركيب الحروف والكلمات مع بعضها، حيث عرفت وضعيات وأنماطاً فنية استثنائية وغير معهودة، كما أن نقطة البداية في كتابة عبارة الحمدلة وهي العبارة المشكِّلة لهذه الطغراء، لا تبدأ دائما من اليمين إلى اليسار كما هو مسلّم به في كتابة الحرف العربي عامة، بل كنا نجد نقطة بدايتها تختلف من كلمة إلى أخرى، وهنا نسجل أن كلمة: «الحمد»، تبدأ من اليمين إلى اليسار :



لكننا نفاجأ «باسم الجلالة» الذي يلي هذه الكلمة في العبارة المذكورة، تبدأ كتابته من أعلى إلى أسفل بعد تغيير اتجاهه كليا:



وفي كلمة: «وحـده»، عادت الكتابة إلى وضعيتها الطبيعية، أي : من اليمين إلى اليسار:



ولعل هذا التغيير في الاتجاهات، هو ما خلق تشابكا وتداخلا غير معهودين في الخط المغربي، مما عسّر عملية التفكيك والقراءة معا. وبالرغم مما قلناه، يبقى أصعب جزء من الطغراء من حيث القراءة ؛ هو البيضة الصغرى التي تقع إلى جهة اليمين، فقد حاولت مرارا وتكرارا قراءتها، لكن محاولاتي المتكررة تلك، باءت بالفشل، حتى خرجت بالقول في نهاية الأمر، أنها مجرد توقيع رمزي اختص به سلاطين السعديين، وضعوه على يمين النص الأصلي للطغراء (الحمدلة)، فقط لخلق توازن تماثلي تتناظر من خلاله البيضة الصغرى مع البيضة الكبرى التي تبدو ممتلئة في جهة اليسار. وذلك حتى لا تبدو الطغراء نحيلة من جهة اليمين، فتم تبعا لذلك وضع البيضة الصغرى اضطرارا، رغم كونها لا ترمز إلى كلمة ذات مغزى كما خُيِّل لي بادئ الأمر.

وقد تتبّع أحد الباحثين المنهجية التي نهجها دوكاستري في تحليل الطغراء السعدية وقراءتها، ولم يُوفّق في فك لغز البيضة الصغرى على غرار دوكاستري نفسه. فقال عنها : «**تبقى علامة أخيرة لم يتم التعرف على فحواها، وهذه العلامة توجد على اليمين ممزوجة مع الواو والحاء والميم**»[28].

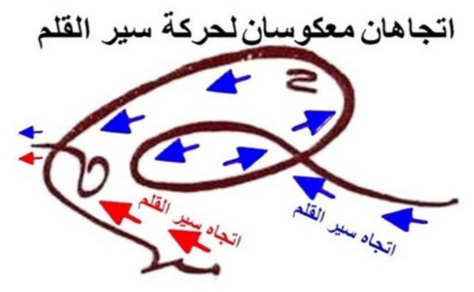
وبعد محاولات عديدة ومضنية، توصّلت بفضل الله تعالى إلى أن البيضة الصغرى في الواقع لم تكن مجرد توقيع رمزي فارغ المحتوى، بل كانت كلمة تتعلق بنسب السعديين، وتشير إلى اتصالهم بالعترة النبوية الطاهرة، كما هو الشأن بالنسبة لسائر الأسر الشريفة التي حكمت بلاد المغرب، والتي كان معظم سلاطينها لا يغفلون ذكر صحة انتسابهم إلى الفرع الحسني في وثائق الدولة ودواوينها ومكاتباتها، ولاشك أن هذا الحرص على ذكر النسب الشريف وإدراجه في التوقيعات الرسمية من طرف سلاطين الدولة السعدية، هو ما دفع الفشتالي - وفي معرض حديثه عن توقيعات المنصور الذهبي - إلى تسمية طغراوات السعديين: «**بالتوقيعات الشريفة**»[29]، ولا شك أيضا أن هذه التسمية تحيلنا ضمنيا على نسب السلطان، وهذا أمر بديهي، إذ أن التوقيع أو الإمضاء - في مفهومه - حتى عند عامة الناس، هو اسم الشخص ونسبه الذي يُكتب بشكل ملغوز، وفق نمط خطي معقد ومتشابك ؛ تشابكا متاهيا ومتناهيا، يصعب معه على الغير تقليده.

بناء على ما سبق، نشير إلى أننا - وبعد تفكيك أحرف البيضة الصغرى باتباع المنهج المذكور- اكتشفنا أنها تعبير عن كلمة : «الحسني»[30]، التي أضيفت كشارة مميزة لجسم الطغراء السعدية :

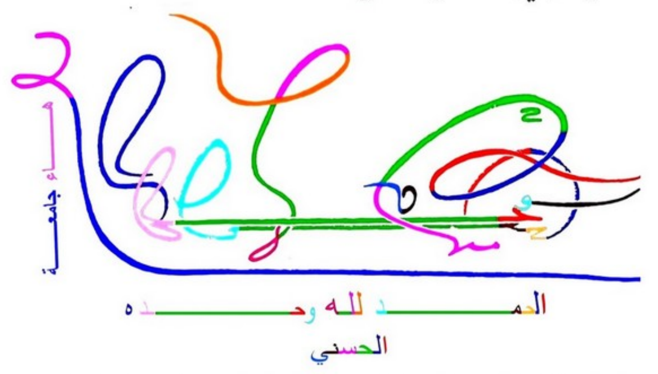
(28) بنعلة (مطفى)، **تاريخ الأوقاف الاسلامية بالمغرب في عصر السعديين**، من خلال حوالات تارودانت وفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، الطبعة الأولى: 2007م، ج/ 1، ص: 312.

(29) الفشتالي، **مناهل الصفا**، ص: 300.

(30) سقنا لذلك ست قرائن مادية ومصدرية مفصّلة في سبع صفحات تعزز وتؤكد استنتاجنا هذا. راجع كتابنا: «**الطغراء والأختام السلطانية..**»، صص: 346 - 352



وحتى تسهل علينا عملية قراءة الطغراء السعدية، عمدنا إلى إعادة جمع تلك العناصر النصية التي قمنا بتفكيكها آنفا (راجع شكل: 5)، ثم إعادة ترتيبها - مرة أخرى - على السطر من اليمين إلى اليسار على غرار الكتابة الاعتيادية، ولتوضيح أحرفها، ميَّزنا بعضها عن بعض بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرائية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرّغ بالخط الإداري. (انظر شكل: 6).



تفكيك كلمات الطغراء، ثم إعادة ترتيبها على السطر من اليمين إلى اليسار:



قراءة كلمات الطغراء بعد تفكيكها وإعادة ترتيبها على السطر ثم تفريغها بالخط الإداري

شكل: 6

3 – الأنموذج الثالث: طغراء السلطان أبي المعالي زيدان السعدي (شكل: 7) :



طغراء مستخرجة من رسالة لأبي المعالي زيدان السعدي (1012 – 1037هـ/ 1603 – 1628م)
إلى فيليب الثالث بتاريخ: فاتح ربيع الثاني1017هـ/ 15 يوليوز1608م
المصدر: الأصل محفوظ في الأرشيف العام. سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد. إسبانيا - رقم: F210
شكل: 7

اخترنا في هذا المبحث إحدى الطغراوات التي بلغت أوج التجويد الفني، ونخص بالذكر؛ تلك الطغراء التي وردت في رسالة لأبي المعالي زيدان السعدي (1012–1037هـ/ 1603–1628م)؛ إلى فليب الثالث بتاريخ: فاتح ربيع الثاني1017هـ/ 15يوليوز1608م[31] (راجع شكل: 7)، وقد ارتأينا دراسة هذه الطغراء الزيدانية البديعة ؛ دراسة تشريحية لرصد عناصرها الفنية الرائعة، التي جعلت منها أجمل شكل طغرائي ورثناه عن العصر السعدي، خطا وتركيبا وتذهيبا وزخرفة.

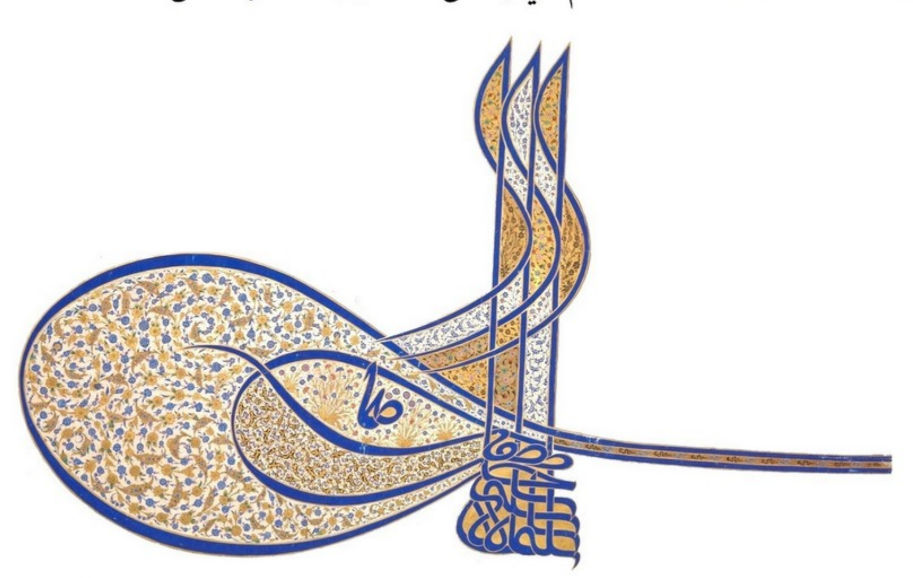
لكن وقبل الشروع في ذلك، لابد من وضع تأصيل فني ومفاهيمي ؛ لمسمّيات العناصر التي تتكون منها الطغراء بشكل عام، وعليه، نشير إلى أن هذا الرسم السلطاني قد وُضعت له قواعد جمالية معلومة، ضَبطَت أبعاده ومقاييسه. حُدِّد عددها في : 5 عناصر تزينية بنيوية.[32] وهي العناصر التي سنقوم باستعراضها

(31) انظر نسخة ملونة عن هذه الرسالة في كتابنا: «**الطغراء والأختام السلطانية..**»، ص: 361.

(32) انظر مقالا عن الطغراء العثمانية: المعايرجي (حسن عبد المجيد)، «**الطغراء قمة الجمال في الخط العربي**»، مجلة **الدوحة**، عدد: 123، مارس 1986م، صفحات: 116-117-118.
انظر أيضا حول التسميات الفنية للطغراء:
- حنش (إدهام محمد)، **الخط العربي في الوثائق العثمانية**، دار المناهج، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1998م، ص: 218 – 219.

تباعا من خلال إجرائنا لمقارنة فنية تشريحية بين الطغراء السعدية والطغراء العثمانية المزامنة لها، وقد اخترنا لهذه المقارنة طغراء أبي المعالي زيدان السعدي المتكررة الذكر (شكل: 7)، التي تتميز عن غيرها من الطغراوات السعدية بحشواتها الزخرفية النباتية البديعة، مما يؤكّد أن المغاربة لم يهتموا بالزخرفة الهندسية فحسب، بل تعدّوها ليهتموا أيضا بالزخرفة النباتية.

والجدير بالذكر أن اختيارنا لطغراء زيدان السعدي لإجراء هذه المقارنة، إنما هو راجع بالأساس إلى كونها شبيهة بطغراء السلطان العثماني سليمان القانوني (926 – 974هـ/ 1520 – 1566م) في بعض تفاصيلها (انظر شكل: 8).



طغراء السلطان العثماني: سليمان القانوني. يرجع تاريخها إلى سنة: 926هـ / 1519م
شكل: **8**

يضاف إلى ذلك أيضا تقاربها الزمني مع هذه الطغراء العثمانية، سيما إذا علمنا أن طغراء زيدان السعدي، لا تعدو أن تكون سوى نسخة مطابقة للطغراوات السعدية التي سبقتها، ولا تزيد عنها إلا بتلك الحشوات الزخرفية التي تخلو منها سابقاتها، بينما تُعتبر هذه الحشوات الزخرفية سمة أساسية في طغراوات أوائل السلاطين العثمانيين، إذن فهذا هو الداعي الذي فرض الطغراء الزيدانية

كأنموذج للمقارنة فيما بينها وبين الطغراء العثمانية، التي تمتلك - تقريبا - نفس الخصائص الزخرفية والفنية. ومن العناصر الفنية التي تتشابه فيها الطغراءان ؛ السعدية والعثمانية :

- **أولا : الطوغ :**

وهو الألف أو اللام أو رقبة كل من الطاء والظاء، ومن هذا الحرف اقتبست تسميته التي تم تحريفها من طرف العثمانيين بسبب عجمتهم (طاء = طوغ أو طغ) (Tug)، وهناك تفسير آخر للطوغ ورد في المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، حيث إن معناه : الذؤابة المعلقة على القلنسوة التركية الحمراء، التي كان يلبسها أركان الدولة، وعادة ما كانت تُصنع تلك الذّؤابة من شعر الخيول[33]. وهي تشبه - إلى حد كبير- القلنسوة المغربية التي تُلبس مع الجلباب المغربي، حيث تمتلك نفس الخصائص (اللون الأحمر والذؤابة السوداء) مع اختلاف طفيف في الطول والحجم.

وورد في بعض المراجع العثمانية أن التتار والمغول كانوا يستعملون الطوغ المأخوذ من شعر ذيل الحصان، كشارة للسيادة، حيث كانت الجيوش ترفع خصلة من ذيل الحصان على عُمد أو رماح منتصبة في المقدمة[34]، ويُطلق أيضا على خصلة الشعر التي تُشبك في دبوس مرصع وترشق في عمامة (الخاقان). والخاقان[35] هو الإمبراطور عند الأتراك، وتسمى زوجته : «خاتون»[36].

---

(33) صابان (سهيل)، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مراجعة: عبد الرزاق محمد حسن بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (43)، الرياض، 2000م، ص: 149.

(34) اوزتونا (يلماز)، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م، ج/ 2، ص: 278.

(35) لقب من ألقاب السلطان، وهو لقب مغولي. انظر:
- عامر (محمود)، **المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية**، قسم التاريخ، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية - العددان: 117 - 118، يناير - يونيو، 2012م، ص: 372.

(36) اوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ج/ 1، ص: 22.

وفي نفس السياق، يشير دوسون إلى أن الأطواغ هي أذيال الخيول، حيث كانت هي : «العلامات المميزة للقيادة العسكرية»، وقد كان للإمبراطورية العثمانية موظف خاص بها يدخل ضمن أغاوات الرِّكاب السلطاني، يسمى : «حامل العلم» أو «مير علم»، حيث يحرس الأعلام و«الأطواغ الستة»[37].

وربما هي مأخوذة من كلمة : «طغراغ» التي يذكر الكاشغري أن لها معنيين، معنى يرتبط بـ «طابع الملك وتوقيعه»[38]، ومعنى يرتبط بـ «كل فرس يعطي الملك جندَه يوم الركوب أو الحرب، ثم يُسترد منهم يوم الإقامة»[39].

وكيفما كان تفسير الطوغ، فإن الطغراء تحتوي على ثلاثة طوغات متوازية، لكل طوغ منها زلفة تزيينية. من هنا يمكن القول أن الألفات أو الطوغات - وعددها ثلاثة - هو أمر بنيوي في رسم الطغراءين : السعدية والعثمانية، ولا يختلفان سوى في نصّيهما، وكذا في وضعية تلك الطوغات التي تحكمت في شكل الطغراء وبنائها الهيكلي. فالطغراء السعدية تبدو مستلقية بحكم امتداد ألفاتها (طوغاتها) امتدادا أفقيا، مما جعلها تمتد على محور أفقي، أما الطغراء العثمانية، فهي قائمة بحكم امتداد ألفاتها امتدادا رأسيا، يتسم بميلان خفيف إلى اليمين أو إلى اليسار.

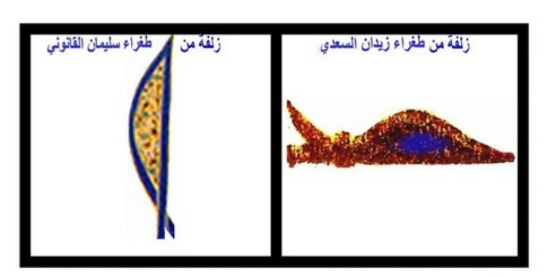
ولعل هذا الامتداد العمودي للطوغات، هو ما جعل الطغراء كلها تمتد على محور عمودي. ومن أوجه التشابه الأخرى بين الطغراءين ؛ «الزلفات التزيينية» للطوغات، حيث تبدو كل واحدة منها في الطغراء الزيدانية على شكل منقار إوزة، وهي نفس الصورة التي تبدو عليها في الطغراوات العثمانية المزامنة لها، ولا تختلف تلك الزلفات في الطغراءين معا إلا في وضعها المحوري، فإذا كانت زلفات الطغراء السعدية أفقية بسبب الامتداد الأفقي للطوغات، فإن زلفات

(37) دوسون (رادجة)، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمة: فيصل شيخ الأرض، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942م، ص: 7.

(38) الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد)، ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، مطبعة عامره، 1914م، ج/ 1، ص: 385

(39) نفس المصدر والصفحة.

الطغراء العثمانية عمودية بسبب الامتداد العمودي للطوغات (انظر شكل: 9).



تشابه شكل الزلفة في الطغراءين: السعدية والعثمانية رغم اختلاف وضعيتهما
شكل: 9

– ثانيا: السرأة :

تشكل السرأة الجزء الذي تبدأ منه كتابة النص أو المتن المراد اعتماده لرسم الطغراء، وهى بمثابة قاعدتها أو كرسيها الذي ترتكز عليه، والملاحظ أن شكلها يشبه شكل «الكمثرى» في الطغراء العثمانية، بيْد أن شكلها في الطغراء السعدية يعرف نوعا من الاستطالة والامتداد، وذلك راجع إلى الشكل العام لمجموع الطغراء ؛ وكذا إلى النص الذي تتألف منه كل واحدة منهما، فإذا كانت عبارة: «الحمد لله وحده» هي نص الطغراء السعدية منذ عهد أحمد المنصور الذهبي، فإن أسماء السلاطين الأتراك هي التي كانت تشكِّل النص الذي تتألف منه الطغراء العثمانية، وذلك بحسب اسم كل سلطان من سلاطين آل عثمان، وقد نجد في بعض الأحايين، نصوصا أخرى وُظّفت في الطغراوات المشرقية الحديثة، كالبسملة وبعض الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وغيرها.

– ثالثا : بيضتا الطغراء:

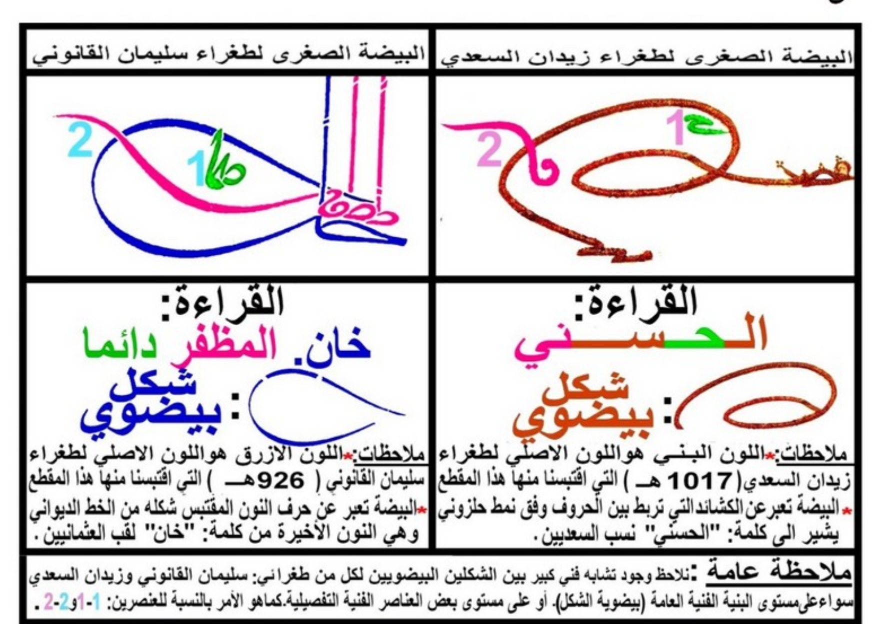
إن الاختلاف بين الطغراءين: «السعدية» و«العثمانية» يتجلى من ناحية أخرى في كون بيضتي الطغراء العثمانية تشكلان كتلة واحدة باتحادهما، حيث تحتوي البيضة الكبرى البيضة التي تصغرها في شكل متوازن يظهر يسار الطوغات الثلاثة، وتشكيل البيضتين راجع إلى توظيف عراقة حرفي النون في كلمتي :

(ابن) - (خان)، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاسم هو لقب اتخذه سلاطين العثمانيين في المرحلة الأولى للطغراء العثمانية، وقد استمر استعماله حاضرا في كتابتها على هذا الشكل، حتى أصبح قاعدة ثابتة لا يجوز الإخلال بها، وهذا معناه أنه إذا كان النص المراد توظيفه في رسم الطغراء وبيضتيها لا يتوفر على حرفين من نفس الجنس كحرف النون، أو حرفين لهما حوض كحوض النون مؤتلفين أو مختلفين، فإنه يتوجب على الخطاط، في هذه الحالة، توظيف بعض الأحرف الأخرى لرسم بيضتي الطغراء، كحرف الدال مثلا أو حرف الراء أو الأحرف الأخرى التي تملك عراقات وزوائد تقبل التطويع، بل ويجوز للخطاط توظيف بعض الكشائد بعد تطويعها من أجل نفس الغرض.

هذا كل ما يتعلق ببيضتي الطغراء العثمانية، أما فيما يتعلق ببيضتي الطغراء السعدية، فإننا نجد كل واحدة منهما مستقلة بنفسها، والأكثر من ذلك، اختلاف تموضعهما. فإذا كانت البيضة الكبرى تقع في اليسار، فإننا نجد البيضة الصغرى تتناظر معها في جهة اليمين، ويرجع ذلك إلى الامتداد الأفقي للألفات (الطوغات) التي فرضت باستلقائها هذا التوزيع، حيث شكلت بتراتبها - الذي يطبعه قانون التوازي - قاعدة أفقية للبيضتين وفق نمط هندسي يطبعه التوازن الهيكلي للطغراء.

يُضاف إلى ذلك، أن البيضة الصغرى للطغراء السعدية، تشكّل - بالتفافها حول نفسها وفق نمط بديع - كلمة «الحسني»، وهو لقب اتخذه سلاطين الدولة السعدية للتذكير بأثالة محتدهم، وعراقة جذمهم، الذي يتصل بالنسب الشريف الممتد إلى الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، أما البيضة الكبرى فيشكّلها تعانق ألف الجلالة بحرف الهاء الرامزة إلى كلمة «انتهى»، حيث يكون ذلك التعانق متصلا كما نشاهده في طغراء أبي المعالي زيدان التي ندرسها، أو منفصلا كما شاهدناه في طغراء أبيه أحمد المنصور الذهبي التي سبق وقمنا بتشريحها على سبيل المثال لا الحصر (راجع شكل: 4 وقارنه بشكل: 7).

بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ التشابه الكبير بين «راء المظفر» في الطغراء العثمانية، و«الياء السيفية» في الطغراء السعدية، حيث تخترقان معا البيضة الصغرى من فضائها الداخلي نحو الفضاء الخارجي في كلتا الطغراءين. وسُميت راء المظفر بهذا الاسم، لأن العثمانيين كانوا عند كتابة أسماء سلاطينهم، يضيفون إليها عبارة «المظفر دائما» كما نلاحظه في كل طغراواتهم، فكانوا عادة ما يرسلون راء كلمة «المظفر» بشكل تخترق معه البيضة الصغرى، بينما كانوا يضعون كلمة «دائما» بأجمعها داخل فضاء تلك البيضة. وحتى يكتمل وجه المقارنة، نشير إلى أن السعديين استخدموا في طغراواتهم، الحرفين الأخيرين من كلمة «الحسنـي»، وهما «النون والياء السيفية»، في نفس موقع كلمة «المظفر»، بينما استخدموا الحرف الثالث من نفس الكلمة (الحسني)، وهو «حرف الحاء»، في نفس موقع كلمة «دائما» من الطغراء العثمانية. وعليه، يمكن القول أنه ورغم تشابه عملية التوزيع بين العنصرين المذكورين في الطغراءين السعدية والعثمانية - إلى حد ما - إلا أن الأحرف أو الكلمات المستخدمة فيهما، مختلفة بسبب اختلاف النص أو المتن الموظف في كل واحدة منهما. ولتجسيد ما قلناه، قمنا بإجراء المقارنة الممثلة في (الشكل: 10).



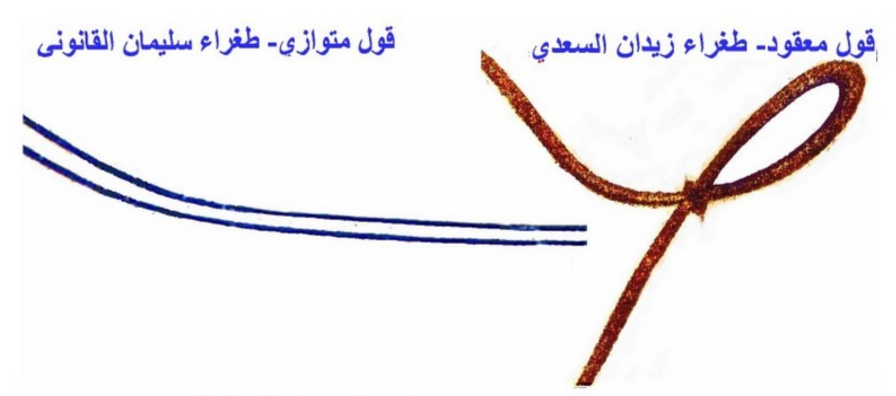
مقارنة بين البيضة الصغرى في الطغراء السعدية ونظيرتها في الطغراء العثمانية

شكل: 10

- رابعا : القول :

وهو ذراعا الطغراء، ويعني في اللغة التركية : (kul)، أي «العبد»[40]، وربما سمي بذلك لأنه يشكل ذنب الطغراء الذي يُعد أحد ملحقاتها الثانوية، ويتكون القول من طوغ علوي وطوغ سفلي، وهما يتّسمان في الطغراء العثمانية بالنزول إلى أسفل على شكل خطين انسيابيين متجاوبين، متجهين إلى اليمين على محور مائل.

أما الطوغان الممثلان «لقول» طغراء زيدان السعدي، فهما يعرفان - على عكس الطغراء العثمانية - الصعود إلى أعلى، على شكل خطين متعانقين معقودين، يشكلان بتعانقهما حلقة بيضوية، تتجه برأسها إلى اليمين على محور مائل (انظر شكل: 11).



شكل القول في كل من الطغراءين السعدية والعثمانية
شكل: 11

- **خامسا : الزخرفة والتذهيب:**

تم توظيف مجموعة من الحشوات الزخرفية لملء فراغ بيضتي الطغراء، وهي من صنف الزخرفة النباتية أوما يسمى بـ «فن التوريق»، وقد اتخذت تلك الزخرفة أشكالا حلزونية مورقة، ومزينة ببعض المراوح النخيلية، والأوراق والأزهار المتنوعة، وعلى رأسها زهرة الأقنثة (الأكانتس)، ويُلاحظ عند

---

(40) صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 186.

إجراء المقارنة بين الطغراءين «السعدية» و«العثمانية»، تشابه أشكال وعناصر الحشوات الزخرفية بين البيضتين «الكبرى» و«الصغرى» في كلتا الطغراءين (انظر شكل: 12).

و في هذا الشأن، يذهب بعض الباحثين الأتراك إلى أن طغراوات القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، كانت طغراوات بديعة، رُسمت بعناية فائقة وزخرفة جميلة لا يزال المهتمون يشعرون بالإعجاب تجاهها حتى الآن[41]. وهذه الطغراوات هي نفسها التي كانت مزامنة لعصر الدولة السعدية اعتبارا من عهد كل من السلطان العثماني سليمان القانوني (926-974هـ/ 1520-1566م)، والسلطان السعدي محمد الشيخ المهدي (947-964هـ/ 1540-1557م).

- سادسا : المَخْلص :

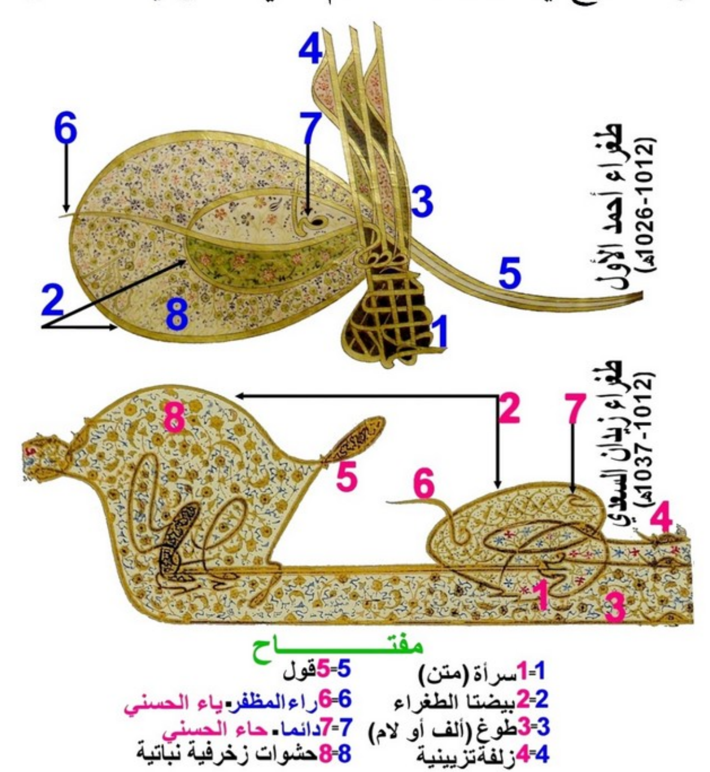
هو ذلك الشكل البيضوي الذى يُرسم على الجانب الأيمن للطغراء، ويعد عنصرا ثانويا مستقلا بذاته ؛ لا يدخل في تكوين البنية الفنية لها، سيما وأنه لم يُضف إلى الطغراء العثمانية المتطورة إلا في عهود متأخرة، والحقيقة أنه لا يوجد لا في الطغراء السعدية، ولا في الطغراء العثمانية المزامنة لها، وقد أصبح يُستخدم في طغراوات أواخر السلاطين العثمانيين، كعنصر أساسي يضاف إليه اسم السلطان، وغالبا ما كانت كلمة «الغازي» هي التي تُشكّله، فتكون قراءة الطغراء كما يلي : (الغازي + الطغراء المكونة لاسم السلطان)، وذلك كناية على أن السلطان يغزو في سبيل الله. ومعلوم أن هذا اللقب كان يتصل اتصالا وثيقا بالنهضة السُّنية التي كانت تدعو إلى الرجوع إلى التعاليم الإسلامية الأولى، واستمر استخدامه عند السلاطين العثمانيين اعتزازا وافتخارا بالانتصارات التي حققوها على العالم المسيحي[42].

(41) **الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة،** مجموعة من الأساتذة الجامعيين تحت إشراف: أكمل الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، منظمة المؤتمر الإسلامي. مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)، الطبعة الثانية: 2010م، ج/ 2، ص: 745. بتصرّف

(42) بركات (مصطفى)، **الألقاب والوظائف العثمانية،** دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة: 2000م، ص: 47.

وقد استعملت كلمات أخرى عوض كلمة «الغازي» ككلمة «عدلي» أو كلمة «رشاد». وللإشارة فإن كلمة «مَخْلص» تعني - في الأصل - لقبا شعريا اعتاد الشعراء العثمانيون اتخاذه لأنفسهم، وذكره في نهايات قصائدهم، إذ كان لكل شاعر منهم «مخلصه الشعري» الخاص به[43].

وحتى نقف على حقيقة المقارنة بين الطغراءين السعدية والعثمانية، حاولنا الجمع بينهما في لوحة تفصيلية معبرة، حيث اتخذنا من طغراء أحمد الأول (1012-1026هـ/ 1603-1617م) الذي تتزامن مرحلة حكمه مع مرحلة حكم زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/ 1603 - 1628م)، أنموذجا للمقارنة. أما عن كيفية إجراء المقارنة، فإننا قد أشرنا للعناصر الفنية المتشابهة في كل من الطغراءين، بنفس الرقم، ثم وضعنا مفتاحا تفسيريا استعرضنا من خلاله التسميات الفنية لتلك العناصر، لنخرج في النهاية بالتصميم التالي الممثل في: (الشكل: 12).



مقارنة بين الطغراءين: السعدية والعثمانية من خلال أنموذجين متزامنين
شكل: 12

(43) حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص: 219.

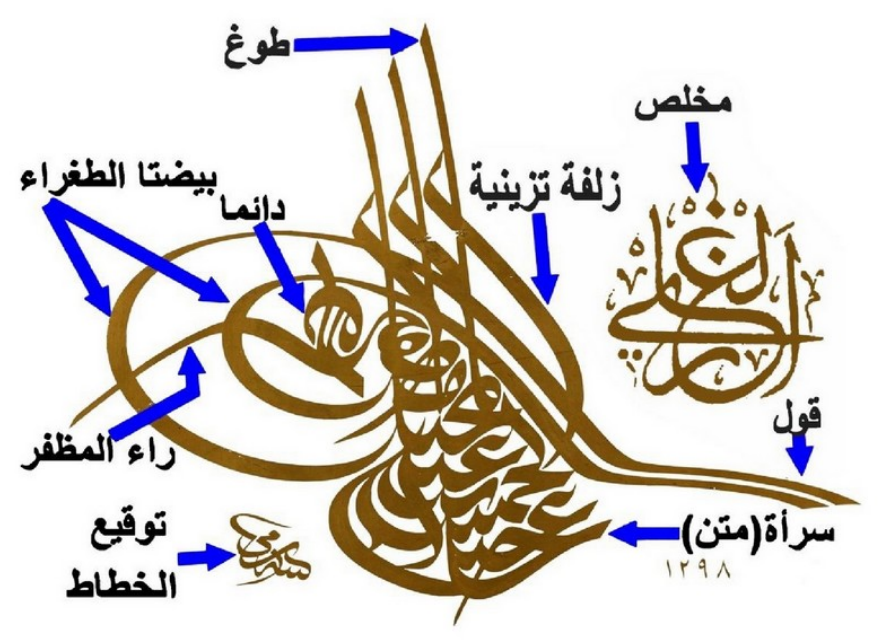
لكن ما تجدر الإشارة إليه، هو أنه في الوقت الذي تطورت فيه الطغراء العثمانية، أُجهضت التجربة السعدية بسبب تسارع الأحداث السياسية، وظهور الفتن والثورات في أواخر هذه الدولة، وقد انعكست تلك الثورات سلبا على الدولة السعدية التي بدأت تفقد سيادتها بالتدريج لصالح مجموعة من القوى المحلية، هؤلاء الذين سرَّعوا بسقوطها. ولو قُدِّر الاستمرار للتجربة السعدية في فن الخط بشكل عام، و رسم «الطغراء» بشكل خاص، لوصلت إلى ما وصلت إليه الطغراء العثمانية، ولكن بتأثيرات مغربية قحة صرفة كما كانت عليه زمن المنصور الذهبي، أوابنه زيدان، ونظرا لارتباط الطغراء بمفهوم «السيادة»، فإن سقوط الدولة يدل ضمنيا على التخلي عن استعمال هذه العلامة السلطانية، وهذا ما وقع بالضبط إبان قيام الدولة العلوية، حيث إن استعمال هذا التوقيع الرسمي للدولة السعدية وسلاطينها، سيصبح منحسرا و منحصرا في بعض التوقيعات الحبسية النادرة، التي لا تدل إلا على الاستعمال الفني، بمبادرات فردية لبعض الخطاطين، وليس على الاستعمال السيادي بمبادرات رسمية.

بالمقابل، استمرت الطغراء المشرقية في تطورها، وقد ساعدها في ذلك الاستقرار السياسي الذي كانت تنعم به الإمبراطورية العثمانية، وترامي أطرافها، مما سمح للإمارات الإسلامية المنضوية تحت لوائها - كالعراق ومصر وبلاد الشام وغيرها - بالمساهمة في تلك التجربة، بل وحمل مشعلها بعد ضعف العثمانيين، وإنقاذ ذلك الإرث الفني من الضياع.

من هذا المنطلق بالذات، أصبحت الطغراء العثمانية - ومعها سائر أصناف الخط المشرقي - في تطور مستمر. ومجمل القول، ان الطغراء العثمانية وصلت بفعل هذه التعديلات والتحسينات منتهى التجويد الفني، حتى أصبحت لها صورة مثالية تعارف عليها الخطاطون، وللاطلاع على ملامح هذه الصورة، اقترحنا أنموذجا رائقا للخطاط العثماني الشهير : «**محمد سامي أفندي**» (1253 - 1330هـ/ 1837 - 1911م)، أشرنا من خلاله إلى تسميات أجزائها الفنية

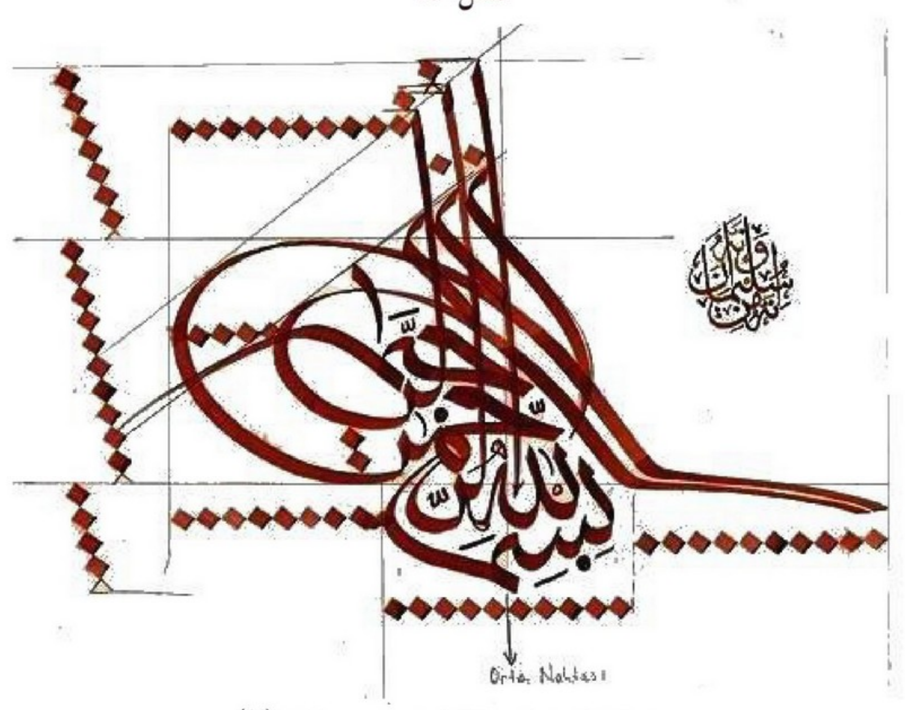
(انظر شكل: 13). وقد قام أحد الخطاطين المحدثين، بضبطها ضبطا هندسيا، وفق القانون الذي وضعه ابن مقلة، أي أنه قام بتسقيط حروفها وتقديرها بعدد النقط التي ينبغي مراعاتها في رسم أبعادها وامتداداتها الهندسية والانسيابية، في محاولة منه لإيجاد صيغة أو قاعدة رياضية ثابتة تُتَّبع في كتابتها (انظر شكل: 14).

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نؤكد على أن المقارنة بين الطغراءين «السعدية» و«العثمانية» لن تكون مقارنة صحيحة البتّة إلا إذا خضعت لمبدأ «التزامن التاريخي»، ولبلوغ هذا المرام عمدنا إلى جمع الصور الفنية المتعددة للطغراء العثمانية، وفق نسق رأسي كرونولوجي يجسد التطورات الفنية التي طرأت على رسمها، كما يفسر كيفية تحولها من شكل يفتقد إلى أبسط مقومات الجمال في أول أمر الدولة العثمانية، إلى شكل رائق بديع في آخرها. وللوقوف على أسرار المقاربة التاريخية والمقارنة الفنية بين الطغراء السعدية ونظيرتها العثمانية؛ اقتصرنا في المقارنة التي أجريناها على اختيار بعض صور الطغراء العثمانية التي تنتمي إلى عهود مختلفة، ثم رتبناها وفق نسق زمني متسلسل يجسد مراحل تطورها التاريخي والفني، ولتفادي الوقوع في مغبّة «الإسقاط التاريخي» الذي يقع فيه بعض المهتمين، قمنا بتحديد الشكل الطغرائي العثماني الذي تجوز مقارنته بالطغراء السعدية، بناء على مبدأي «التزامن والمعاصرة»، وذلك حتى تكون أحكامنا القيمية أحكاما موضوعية مدعومة بشواهدها التاريخية والمادية (انظر شكل: 15).



تفصيل الطغراء العثمانية المتطورة

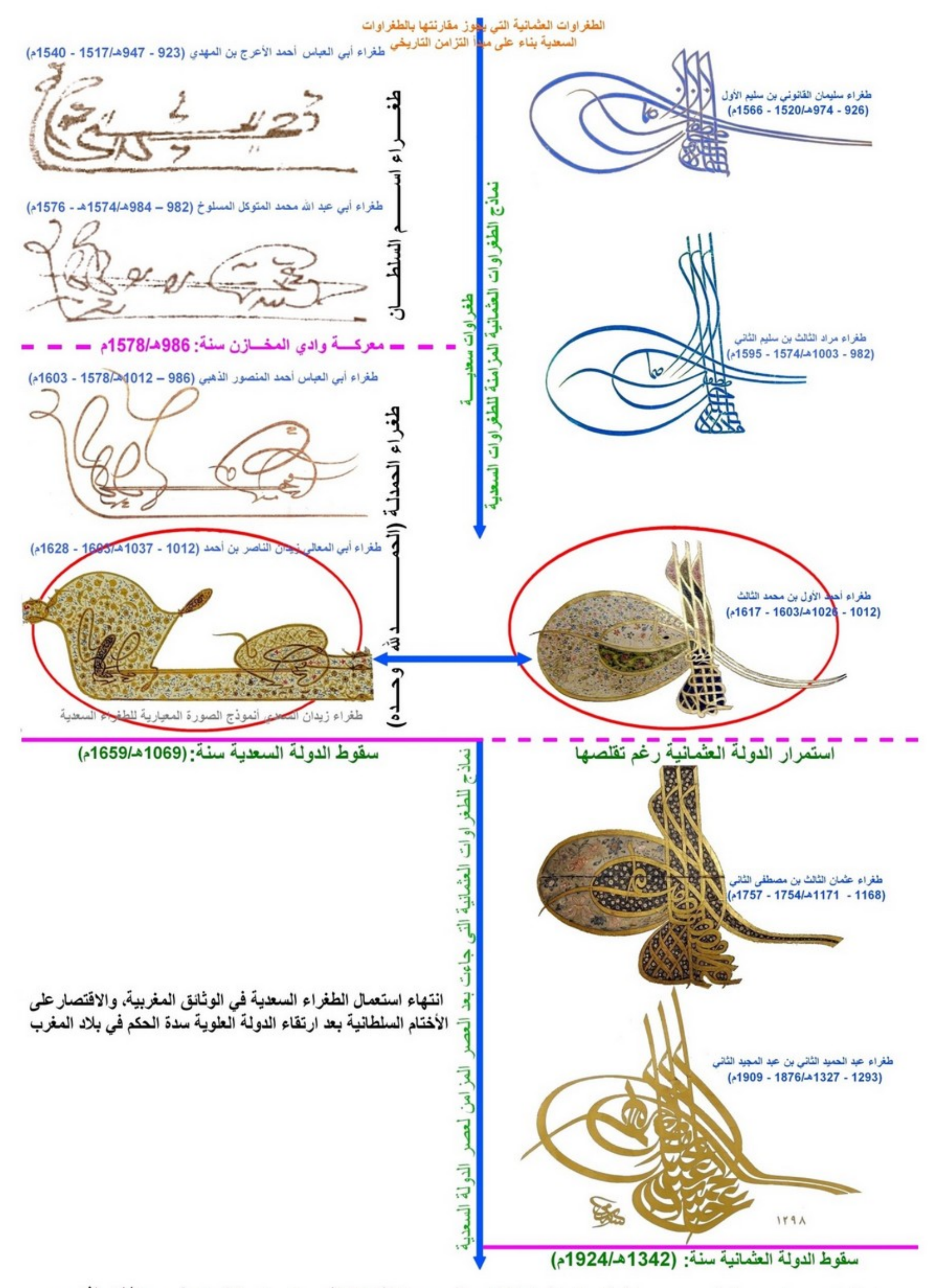
شكل: 13



تسقيط الطغراء العثمانية المتطورة بعدد النقط(44).

شكل: 14

(44) hatdergisi.com/tugra_sanati.htm



خط زمني يجسد تطور صور الطغراء العثمانية، والصورة الفنية التي يجوز مقارنتها من تلك الصور بالطغراء السعدية

شكل: 15

لائحة المصادر والمراجع

• الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد)، ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، مطبعة عامره، 1914م، ج/ 1.

• ابن الأحمر (أبو الوليد)، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق: محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، المطبعة المهدية، تطوان، 1964م.

• ابن خلدون (عبد الرحمن):

– المقدمة، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1988م.

– «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1988م، ج/ 3.

• ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، طبعة: 1900م، ج/ 2.

• ابن منظور (أبو الفضل أحمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1993م، ج/ 4.

• الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين المرواني الأموي)، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: 1994م، ج/ 21.

• الأصبهاني (عماد الدين أبو عبد الله محمد)، تاريخ دولة آل سلجوق المسمى: «نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية"، قرأه وقدم له: يحيى مراد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: 2004م.

• التازي (عبد الهادي)، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، المحمدية، 1987م، المجلد الثامن.

• الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، مجموعة من الأساتذة الجامعيين تحت إشراف: أكمل الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، منظمة المؤتمر الإسلامي. مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)، الطبعة الثانية: 2010م، ج/ 2.

• الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة: 2000م، ج/ 12.

• العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى: 2002م، ج/ 3.

• الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ت.

• الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة تحت إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة: 2005م.

• المعايرجي (حسن عبد المجيد)، الطغراء قمة الجمال في الخط العربي، مجلة الدوحة، عدد: 123، مارس 1986م.

• المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (إبراهيم مصطفى- أحمد الزيات - حامد عبد القادر- محمد النجار)، دار الدعوة، د.ت، ج/ 2.

• المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج/ 3.

• اوزتونا (يلماز)، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م، ج/ 2.

• بركات (مصطفى)، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة: 2000م.

• بنعلة (مصطفى)، تاريخ الأوقاف الاسلامية بالمغرب في عصر السعديين، من خلال حوالات تارودانت وفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، الطبعة الأولى: 2007م، ج/ 1.

• حميد (مها سعيد)، وزير الموصل مؤيد الدين الطغرائي- دراسة في سيرته ونشاطه العلمي - مركز دراسات الموصل، مجلة التربية والعلم، المجلد : 19، العدد: 5، سنة: 2012م.

• حنش (إدهام محمد)، الخط العربي في الوثائق العثمانية، دار المناهج، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1998م.

• خبطة (محمد عبد الحفيظ الحسني):

- المصاحف والكتب المخطوطة في المغرب خلال العصرين المريني والسعدي. مساهمة في دراسة أصناف الخط المغربي وأقلامه، أطروحة جامعية غير منشورة، كلية الآداب - سايس. فاس 2010 - 2011، مبحث: «الطغراء: جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر السعدي»، ج/ 2، صص: 492 - 567.

- «الطغراء والأختام السلطانية وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية. دراسة تاريخية - فنية، وتشريح علمي - تعليمي»، فاس، الطبعة الأولى: 2013م.

• دوسون (رادجة)، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمة: فيصل شيخ الأرض، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942م.

- صابان (سهيل)، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة: عبد الرزاق محمد حسن بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (43)، الرياض، 2000م.
- عامر (محمود)، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية - العددان: 117- 118، يناير - يونيو، 2012م.
- مرتضى الزّبيدي (أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، ج/ 12.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي)، معجم الأدباء؛ المسمّى: «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1993م، ج/ 3.